الكاتب: أ/ عبدالرحمان شباب
باحث في الأدب الثقافة الشعبية
جامعة محمد الاول وجدة - المغرب

عنوان المقال : نظرية الفعل التواصلي عند هابرماس وعلاقتها بالثقافة الشعبية والاعلام

البريد الالكتروني: chabab1975@gmail.com

نظرية الفعل التواصلي عند هابرماس وعلاقتها بالثقافة الشعبية والاعلام

الملخص بالعربية:

يعتبر يورغان هابرماس من أهم علماء الاجتماع والسياسة المعاصرين ومن الرعيل الثاني لمدرسة فرانكفورت (ماكس هوركهيمر، تيودور أدورنو، هربرت ماركيوز...)؛ كرس كثيرا من أفكاره لتحليل الأفعال الاجتماعية ؛ وينظر إلى الحداثة أنها مشروع لم يكتمل وأن بديلها هو العقل التواصلي ،وهو صاحب نظرية الفعل التواصلي التي تسعى إلى التأسيس لأخلاق تواصلية تدعو إلى التحاور مع الأخر في فضاء يتيح المساواة بين الأطراف ، كما عرف بانتقاده للعقلانية الحديثة وللتنوير بسبب النتائج التي آلت إليها الإنسانية ؛ لذلك فهو يدعو إلى تقويم العقلانية لتحرير الإنسان.

ونسعى في هذا المقال إلى عرض نظرية الفعل التواصلي محاولين ربطها بالثقافة الشعبية انطلاقا من المفاهيم المؤطرة لنظرية الفعل التواصلي .

Abstract :

Jürgen Habermas is considered one of the most important and modern sociologists and politicians of the Frankfurt School's second generation (Max Horkheimer,Theodor Adorno, Herbert Marcuse...)؛He devoted much of his ideas to the analysis of social actions; He claimed that modernity is unfurfield project that can be replaced by communicative mind.

Jürgen Habermas is the funder of the communicative action theory. This theory goes to establish communicative education. It also invites people to communicate with others equally. This sociologist is known by his critics of the modern rationality and enlightenment .He recommends a rational evaluation to liberate humanity from what it undergoes nowadays.

In this article, we seek to present the communicative action theory in relation to popular culture according to the concepts underlying this theory.

Key words communicative action - culture - alienation and reification - publicity

الكلمات الرئيسية : الفعل التواصلي – الثقافة --الاغتراب والتشيؤ- الإشهار

يمثل المفكر الألماني الجيل الثاني من مدرسة فرانكفورت،وقد انتقد النظرية النقدية التي رأى فيها كثيرا من القصور فحاول تجاوز الثغرات التي لاحظها ، موظفا " العقل و العقلانية " فأتى بما سماه : النظرية التواصلية ،قصد تجاوز النظرية القديمة (النظرية النقدية) .

العقل الأداتي :

ويعتبر العقل الأداتي أو كما يسميه البعض العقلانية النقدية من المصطلحات الهامة في النظرية النقدية ؛ والتي تصدى لها هابرماس بالنقد والتحليل ومدى تأثيرها على صيرورة الإنسان الفكرية فـ: " العقل لأداتي عنده ينظر إلى الإنسان باعتباره جزءا يشبه الأجزاء الطبيعية والمادية ...يصبح الإنسان عاجزا عن إدراك العمليات الاجتماعية والسياسية والتاريخية في سياقها الشامل ، وعاجز أيضا عن تجاوز الحاضر للوصول الى الماضي واستشراف المستقبل، ويصبح العقل الأداتي بذلك "قادرا على شيء واحد فقط هو قبول الأمر الواقع والتكيف مع الوقائع والأحداث القائمة "1

لأن العقل الأداتي موجه بناء على مجموعة من القواعد قصد " تحقيق أهداف محددة في ظل شروط واضحة " 2 وقد كان سبب ظهور العقل الأداتي التطور العلمي في عصر الأنوار كما كان للرأسمالية دور في ذلك ، فتم العمل على تحقيق مجموعة من الغايات بمعزل عن النظر في هذه الغايات أهي في صالح الإنسان أم ستنعكس عليه سلبا،ولعل الكلام السائر الذي يتم تداوله : (الغاية تبرر الوسيلة) هو ملخص واضح ومختصر للعقل الأداتي ، لأن مضمون العبارة توحي بضرورة تحقيق كل مانود الوصول إليه بمعزل عن الطريقة التي يتم بها تحقيق ذلك ، فالقتل والنهب والسلب والكذب والخيانة والاعتداء على حقوق الغير كلها وسائل تبرر الغايات المتنوعة التي يرسمها طرف معين،وفي هذا السياق وجدنا كثيرا من الدول القوية تسعى إلى طمس ثقافة شعوب مغلوب عليها دون وجه حق، فنجد اليهود - على سبيل المثال - ينسبون إلى أنفسهم كثيرا من التراث الفلسطيني المادي وغير المادي ، بل وينسبون إليهم قصصا وحكايات شعبية وأمثالا حرفوا معانيها قصد تثبيت هوية مفقودة عملوا على إيجادها عبر مر التاريخ، ونجد الغرب يسرق تراث الغير ويحوره وينسبه إليه...

ونكاد نجد نفس المعنى عن العقل الأداتي عند ماكس هوركهايمر حيث يرى بأنه " هو المهيمن والمسيطر في المجتمعات الرأسمالية الحديثة التي فقد فيها العقل دوره وتم تقليصه لمجرد أداة لتحقيق أهداف معينة وبالتدرج فقد العقل أهميته ، أدى ذلك إلى عدم قدرة العقل على إدراك الحقائق في ذاتها حيث أصبح كل شيء "مجرد وسيلة "3

يمكن أن نناقش النظرية التواصلية لدى هابرماس أيضا من خلال مقولة "التشيؤ والاغتراب " وفحواها أن البشر مغتربون عن امكاناتهم وماهياتهم ، فالمجتمع الصناعي المتقدم يكشف عن اغتراب الإنسان وتشيئه في ظواهر عديدة ومتنوعة ، وتظهر مقولة التشيؤ والاغتراب في تسلط النظم البيروقراطية وأساليب القمع الإداري ، والاغتراب الإنساني يظهر في عملية توحيد الحاجات البشرية وتقنين أنماط السلوك."4

الاغتراب:

لقد أصبح الإنسان الشعبي غريبا وسط هذا العالم المادي الذي يسعى فيه الإنسان الى تحقيق مجموعة من الرغبات المادية التي لا تنتهي ، سعيا إلى العيش حياة أفضل في هذا العالم الذي جعل من الإنسان آلة تشتغل ليل نهار قصد مواجهة ضغط الحياة ومتطلبات البقاء ؛ بل إن الإنسان أصبح لا يرضى بمجرد العيش،وإنما أخذ على عاتقه إجهاد نفسه قصد التعالي والبروز واحتلال رتب التميز المادي ،وقد انزاح به تفكيره الذي اختاره إلى أن يعيش حالة اغتراب عجيبة ، فقد واصل الانسان رحلة البحث عن المادة دون أن يصل الى مبتغاه على حساب راحته النفسية وعيشه الهادئ وسط الجماعة الانسانية الطبيعية ، وقد عالجت نظرية لوكاتش مصطلح الاغتراب " فذهبت إلى أن العمال والمديرين في النظام الرأسمالي مغتربون ،لأنهم محرومون من إشباع حاجاتهم الأساسية؛ وسلوكياتهم مدفوعة بالمصلحة وليس بالحب إنهم قد يكونون أطباء أو محامين ، لكنهم بالتأكيد ليسوا بشرا."5

الاشهار:

الإشهار واجهة إعلامية ذات حدين ، يوظفها الأشخاص والمؤسسات كل من زاويته بالطريقة التي تخدم مصلحته المادية والمعنوية، وقد أصبح في العقود الأخيرة بأيدي شركات متمرسة وأشخاص متخصصين،ومؤسسات قوية تقوم بتوجيه الناس بالشكل الذي تريد، مستغلة في ذلك شتى الوسائل بدءا بالصورة ثم الكلمة الدقيقة التي تحمل مدلولا محددا وموجِها ناهيك عن الموسيقى الدالة والمؤثرة...

ولا يمكن أن نتطرق إلى الإشهار دون أن نتحدث عن الإعلام بمختلف وسائله ومؤسساته والرأسمال المادي والبشري الذي يوظف من أجل إنجاحه في توجيه الرأي العام نحو أحداث بعينها،وأساليب الإلهاء الممارسة على الشعوب لتحقيق مجموعة من الأهداف المتنوعة ، والتي تختلف من مؤسسة إعلامية لأخرى ، حسب التوجه الديني أو السياسي أو الفكري أو المادي ... الذي يتستر وراء مؤسسة إعلامية بعينها ، وهي ذاتها تستعين في كثير من الأحيان بالإشهار الذي هو جزء منها.

التشيؤ:

ويمكن تقريب المصطلح بإعادته إلى أصله : الشين والياء والهمزة ، وتعطي كلمة : شيء ، بمعنى نفي صفات الإنسانية عن الإنسان ؛ والتعامل معه كشيء أو مادة تباع وتشترى، وتستغل كغيرها من الأشياء التي يأتي عليها الوقت فتصبح غير صالحة .. وقد عبر لوكاتش عن معنى التشيؤ بقوله بأنه :" تحول الصفات الإنسانية إلى أشياء جامدة واتخاذها لوجود مستقبل (هكذا) واكتسابها لصفات غير إنسانية."6

الفن ونظرية الجمال:

انتقد هابرماس الحداثة لأنها اهتمت بالمعرفة على حساب الأخلاق والفن فهو يرى : " أن الفن يلعب دورا هاما و رئيسيا في الحياة ، فالفن يستطيع أن يقوم بعملية توحيد المجالات المعرفية والأخلاقية، وتقديمها للمجتمع في صورة فنية جذابة. فهو بذلك يصور الفن تصويرا يعتمد على فكرة الجميل وهنا يتضح أن هابرماس يخرج نظريته الجمالية من خلال نظريته الاجتماعية."7

الحداثة مشروع لم يكتمل بعد والبديل هو العقل التواصلي:

حاول هابرماس انتقاد مفهوم الحقيقة عند هيجل قصد تجاوز النظرية النقدية والمرور إلى النظرية التواصلية. وقد تأثر عموما بالفلسفة الكانطية الهيجيلية و الماركسية وبفلسفة هيدجر وبرواد مدرسة فرانكفورت ؛ كما تأثر بأستاذه أدورنو خاصة في فكرة التشيؤ والاغتراب .

فقد دافع هابرماس عن الحداثة "من خلال فلسفة هايدجر وتحليلاته الانطولوجيا التي ركزت على وجود الإنسان في العالم ووجوده مع الآخرين ...ولذلك فهابرماسكان هدفه هو تحرير الوعي الاجتماعي وتأسيس نظرية تقوم على التواصل الانساني."8

ينظر هابرماس الى الحداثة باعتبارها مشروعا لم يكتمل بعد " ويرى أن الحداثة تفسخت بسبب اعتمادها ثوابت تتمثل في إرادة الهيمنة والتسلط ، وهذه الثوابت كانت دائما عقبات أمام تحقيق الحداثة." 9 وقد عبر عن هذه الأفكار بإسهاب وتوضيح في كتابه " الخطاب الفلسفي للحداثة " بعدما كان قد أثار ذلك في مقال بعنوان " الحداثة مشروع لم يكتمل بعد " حيث انتقد مجموعة من اتجاهات الحداثة كما يراها أمثال هيجل و نتشه وهوركهيمر وادورنو و هيدجر ، واعتبر أن البديل هو العقل التواصلي " فالحداثة في نظر هابرماس لاترتبط بمرحلة تاريخية معينة ...وإنما تحدث كلما تجددت العلاقة بالقديم وتم الوعي بالمرحلة الجديدة."10

لذلك ليس من الضروري حسب هابرماس التخلي عن الحداثة،وإنما لابد من تسليط النقد عليها قصد تحديد الايجابيات والسلبيات وجعل الفن مخرجا لكبوات الحداثة.

لعل من النتائج السلبية للحداثة تأثيرها على الثقافة الشعبية نظرا لما تحملها فلسفتها من توجهات فكرية تنفي الماضي وتتجاوزه ، وتهرول إلى المستقبل وتسعى فرض أنماط معينة من العيش والسلوك ، بل قد حاولت تغيير الإنسان عقله وسلوكه وأخلاقه وميولاته ، وجعلته ينظر إلى ماضيه والى ثقافته المادية والمعنوية نظرة ازدراء واحتقار، لقد ساهمت الحداثة بشكل كبير في طمس لغات الإنسان وعاداته ..ومع ظهور العولمة كادت الشعوب تصبح نسخة واحدة .

العقل التواصلي :

رأى هابرماس أن اللغة هي الوسيلة للحوار والتفاهم والتواصل بين الأفراد اعتمادا على حجج عقلية وأدلة وبراهين تتيح الإجماع والاتفاق .

إذا كانت نظرية التواصل تهتم بالإنسان وتجعله صلب هذه العملية ؛ فانه لا يمكن عزل الإنسان عن محيطه الثقافي وخاصة الجانب الشعبي منه ، ذلك أن التراث الشعبي عامة يحيط حياة الإنسان ووقائعها ، ويصور ذلك في أشكال أدبية شعبية متنوعة تفرضها الحياة التي يعيشها الإنسان والمواقف الملازمة له ، فيقص حكاية أو يطلق مثلا ؛ أو ينشد شعرا ...ووعاء كل هذه الأشكال هو اللغة وبالتالي فان الحوار الذي دعا إليه هابرماس من أجل تحقيق نظريته يخدم في الواقع تراث الشعوب وثقافتها الشعبية ؛ لان ذلك يتيح لها التعبير عن فنونها المختلفة وإظهارها للآخر، وفرض هذه الفنون لتصبح فعالة تحافظ على كينونتها وتكتسب مناعة تقيها من الانصهار الكلي في بوتقة العولمة في الوقت الذي تكتسي فيه طابع العالمية ، فهي تسعى إلى

الوقوف في وجه العولمة وتسعى إلى أن تصبح "معولمة" ولعل الذي ساهم في ذلك بشكل كبير وسائل التواصل الحديثة بمختلف أشكالها فقد " ساهمت الثورة الانتقالية الكبرى والتكنولوجيا الجديدة لوسائل الإعلام الالكترونية وعلى رأسها الانترنت في ظهور فضاء عام اجتماعي جديد يخضع لمثالية هابرماس"11

الفضاء العمومي والديمقراطية والاعلام الجديد (شبكات التواصل الاجتماعي):

الفضاء العمومي عند هابرماس هو فضاء لممارسة الديمقراطية ؛ ومشاركة جميع الأطراف باستعمال حجج عقلية تتيح للجميع التوافق حول رأي يناسب الجميع12، لكن ألا يمكن اعتبار الفضاء العمومي مكانا واسعا لأن يعرض فيه الإنسان الشعبي ثقافته الشعبية (والثقافة هنا بمفهومها الواسع) دون أن تتعرض لمضايقات من طرف الإنسان الرسمي ، ثم هل أعطيت الفرصة المناسبة للثقافة الشعبية قصد البروز بشكل عاد يساير أشكال الثقافة الرسمية في إطار ديمقراطي ؟ ألم تتعرض الثقافة الشعبية لفترة طويلة للتضييق خوفا من أن تنافس الثقافة الرسمية وتأخذ مكانتها ؟ ثم أين يتجلى دور الدولة في كل هذا (إعطاء أهمية للثقافة الشعبية)؟ - خاصة وأن الثقافة الشعبية تقدم كوسيلة ترفيه في فصل الصيف كما تحصر في مهرجانات الموسيقى ؛ وفي انواع محددة من الموسيقى لاغير ؛وكأن الثقافة الشعبية هي الموسيقى وحدها وفي فصل الصيف بالذات . وهذا في نظري نوع من التبخيس للثقافة الشعبية وإيحاء بأنها لا تصلح إلا لتزجيه ليالي الصيف الطويلة والساخنة ؟

" إن النموذج المرغوب للديمقراطية هو ذلك النموذج الذي يعطي لجميع المواطنين الإمكانية في التعبير عن آرائهم وتوجهاتهم وعن أفكارهم الثقافية وكذلك يعطي الإمكانية والفرصة للتفاهم وهذا لايمكن تصوره الا من خلال المناقشات العامة." لذلك لانستغرب لجوء قاعدة واسعة من الناس إلى فضاءات بديلة هي ما أضحى يسمى بالفضاء الرقمي13 إذ " يربط الكثير من المدافعين عن الديمقراطية الرقمية علاقة الميديا الجديدة بإحداث النموذج الأصلي للفضاء العمومي " 14ذلك أن وسائل التواصل الحديثة أتاحت لجمهور عريض التواصل والتعبير عن الرأي والأفكار والمناقشة ؛ بل أصبح نشيطون في شبكات التواصل موجهون للأحداث ؛ فاعلون افتراضيون لهم سلطة حقيقية ؛ يؤثرون في الساحة ؛ في وقت كانوا لا يستطيعون فيه التعبير عن آرائهم ، بل كانوا يتعرضون لقمع ممنهج واضطهاد فضيع ..كما كان الفضاء محتكرا من طرف فئة معينة تهيمن على كل شيء وتفرض رأيها موظفة شتى الوسائل المادية والمعنوية (كالإعلام والسلطة /القمع والإشاعة ...)

ومن هنا فقد تم تجاوز الفعل الأداتي لوسائل الاتصال إلى الفعل التواصلي لها ؛ بمعنى الانتقال مما هو تقليدي غائي نفعي إلى ماهر أسمى وهو تحقيق التواصل الفعال بين مختلف الفئات بمعزل عن تموضعها .

وقد أتاحت هذه الوسائل بمختلف أشكالها التعريف بالفنون الشعبية ؛ وعرض الإنسان الشعبي لثقافته الشعبية ليتم تلاقفها ونقلها الى العالم والتعريف بها...

خاتمة :

رغم أهمية العقل التواصلي لدى هابرماس والذي يسعى من خلاله الى التفاهم والحوار قصد الإجماع بناء على أدلة وبراهين عقلية ؛ إلا أن تنفيذ ما يذهب إليه يبقى صعب التحقق نظرا لتعدد الأطياف السياسية واختلاف توجهات المجموعات البشرية ؛ وتباين مستويات العيش والتعليم والتربية بين الأشخاص مما يجعل من استعمال العقل وتوظيف الحجج العقلية في كثير من الأحيان أمرا مستحيلا ؛ فليس كل منطق العقل دائما من يتحكم وانم اقدد تتحكم الأهواء أو القوة أو غيرهما...

ولعله لو تم الاستناد على العقل وحده في الحفاظ على تراث الشعوب لما تم ذلك ، فالشعوب حافظت على تراثها التاريخي والثقافي لا بالاعتماد على الحجج والبراهين وإنما بالحب لموروثهم ؛ وكونهم يعيشونه ويحيونه ؛ ينطقون بالأمثال في حياتهم اليومية للإشارة إلى معنى أو انتقاد أمر سلبي أو التمثيل لشيء مبهم...وينشدون أزجالا وإشعارا في الحقول وأماكن العمل ؛ ويقصون حكايات تؤنس وحشتهم و تبدد ظلام ليالي الشتاء الطويلة ...

وقد فرض الإعلام نفسه بمختلف أشكاله وحل محل كثير ومن ألوان الثقافة الشعبية ، فزاحم المثل والنكتة في الشارع والمقهى ، وزاحم الحكاية في البيت ، كما زاحم القصيدة وغيرها لتهافت الناس على وسائل الإعلام بمختلف أشكالها ، فغيرت أنماط سلوكهم ولم تترك لهم فرصة نقل الموروث الشعبي ناهيك عن إبداعه.

الهوامش :

[1]- أبو النور حمدي أبو النور حسن ،"يورجينهابرماس /الأخلاق والتواصل"، التنوير للطباعة والنشر بيروت 2012،ص49 .

والمقولة بين مزدوجتين لهابرماس نقلا من كتابه " التقنية والعلم كايديولوجيا"

[2]- نفسه ص 134.

[3]- نفسه ص 114.

[4]- أبوالنورحمدي أبو النور حسن ، ص 44 أخذ الكلام عن هابرمايس من كتابه "التقنية والعلم كايديولوجيا"."

[5]- أبوالنورحمدي أبو النور حسن ، نفسه ص 45.

[6]- أبوالنورحمدي أبو النور حسن، مرجع سابق ، ص 45 .وقن نقل الكاتب هذه القولة عن عبد الغفار مكاوي من كتابه :" النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت"

[7]- نفسه، ص 113

[8]- نفسه،ص107.

[9]- نفسه ص 121

[10]- نفسه ص 122

[11]- من مقال : "مواقع التواصل الاجتماعي واشكالية الفضاء العمومي "لهواري حمزة من موقع : https://revues.univ-ouargla.dz/index.php/numero-20-ssh/2579-3

التصفح يوم23-10-2018 11.30 صباحا .

والمقال منشور أيضا في" مجلة الباحث في العلوم الانسانية والاجتماعية " المجلد 7 العدد 20 ،شتنبر 2015 ،من ص 221 الى ص 232.

[12]-عارض الفيلسوف الفرنسي جون فرانسوا ليوطار مفهوم الاجماع لدى هابرماس معتقدا أن جوهر الأمور هو الاختلاف والنزاع ، ولا ابداع بدونهما ، متهما في نفس الوقت هابرماس بأنه يدافع عن مشروع الحداثة المؤسس على فكرة الأنواريين ويسعى الى بناء خطاب فلسفي يتخذ الاجماع هدفا له تظل كل محاولة لرد الاعتبار له محاولة يائسة .ان جوهر الابداع في اعتقاد ليوطار هو الاختلاف وليس الاجماع"(نقلا عن سالم يفوت من مقال "فلسفة التواصل عند هابرماس" doc.

[13]- اطلق عليه الاستاذ هواري حمزة في مقال سابق " الفضاء العمووي الافتراضي"

[14]- من مقال : "مواقع التواصل الاجتماعي واشكالية الفضاء العمومي "لهواري حمزة من موقع : https://revues.univ-ouargla.dz/index.php/numero-20-ssh/2579-3 التصفح

يوم23-10-2018 (ص 221 في النسخة الورقية)